مجلة المجمع العلمي العربي

الجزء ٧ تمـــوز سنة ١٩٢٢ م الموافق ذي القعدة سنة ١٣٤٠ هـ المجلد ٢

كتاب تاريخ حكماء الاسلام

لو بقي المسلمون يشتغلون في العلوم الدنيوية ويتفننون في وضـع المصنفات فيها في عصورهم الاخيرة — على نسبـة ما فعلوا في عصرهم الاول — لما علم إلا الله كيف كان مبلـغ عمرانهم ، وإلى أي حد من الكمال وصل تمدنهم . لكن رجال الدين صدموا تلك العلوم الدنيوية ورجالها صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها . فلم تلبث علوم الحكمة أن ذوت واضمحلت من بين المسلمين وقامت مقامها علوم الدين ووسائلها ، فكثر الاشتغال والتصنيف فيها وبلغت حداً لا فائدة ترجى من ورائه للامة مع ان الاسلام يحض على تحصيل العلمين وقد جعلها مناط الفوز بالسعادتين .

على ان ماتركه علماء الاسلام لنامن مصنفات الحكمة والطب والكيمياء والهيأة وغيرها ليس بالقليل لو وصل بتمامه الينا — لكنه — واضيعتاه لم يصلنا منه إلا القليل . ومعظمه قضى عليه الجهل أو التعصب أو أبادته الفتن العمياء . وبعضه نُقل إلى مكاتب اوروبا وما زال محفوظاً فيها إلى اليوم . هذه البقية الباقية في اوروبا هي التي أخذت تنجم من وقت إلى آخر وتصل إلينا مطبوعة مصححة على يد فئة من أفاضل المستشرقين . جزاهم الله عن العلم خيراً .

ومما يزيدنا بصيرة وخبرة في معرفة علوم الحكمة وأدوارها في الاسلام أن نعرف قبل كل شيء تراجم علماء هذه العلوم الذين نقلوها ودوّنوها . والمصنفات في تراجمهم كثيرة كما يظهر من كتاب الفهرست لابن النديم وكشف الظنون وتاريخ ابن خلكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وغيرهما. ومع هذا فانه لم يصل الينا منها إلى اليوم شيء سوى كتاب (طبقات الاطباء) لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة (٦٦٨) هـ وكتاب (أخبار الحكماء) للوزير جمال الدين القفطي المتوفى سنة (٦٤٦)هـ وكلاهما مستنسخ عن نسخ محفوظة في مكاتب اوروباثم طبعا في مصر . ومن الكتب المشهورة في تراجم الحكماء كتاب (صوان الحكمة) لأبي سليمان محمد ابن طاهر السجزي (أو السجستاني) . ومثله كتاب (تاريخ حكماء الاسلام) للامام ظهير الدين أبي الحسن البيهقي المتوفى في حدود سنة (٥٧٠) للهجرة . ويوجد من هذا الكتاب الأخير نسخة في مكتبة برلين اطلع عليها رئيس مجمعنا (السيد محمد كرد علي) خلال رحلته الأخيرة إلى اوروبا فلم يشأ أن يدعها من دون أن يأخذ عنها نسخة مصورة بالفوتوغراف وقد فعل والنسخة اليوم محفوظة لدينا في مكتبة المجمع وهي ذات مئتين ونيف من الصفحات بقطع صغير جداً بحيث تبلغ الصفحة مقدار كف الفتى الصغير مركبة من خمسة عشر سطراً ولا يزيد السطر عن ست أو سبع كلمات مكتوبة بخط جميل واضح . لكنها لا تخلو من بعض تحريف وتصحيف واضطراب أو نقص في بعض المواطن . وقد قال المؤلف في المقدمة مانصه : (وها أنا ناسج في تصنيفي هذا على منوال مصنّف كتاب (صوان الحكمة) تأليف أبي سليمان محمد بن طاهر السجزي وذاكر من تواريخ الحكماء وفوائدهم ما قرب غرْب نجومه في مغارب النسيان الخ) ومما يلاحظ على المرحوم جورجي افندي زيدان قوله ان المؤلف جعل كتابه ذيلاً لصوان الحكمة مع أن المؤلف نفسه يقول انه حذا فيه حذوه ونسج على منواله كما سمعت . فلعل هذا السهو هو من المستر (بروكلمن) الذي اعتمد عليه جورجي افندي لامن جورجي أفندي نفسه.

والبيهقي مؤلف (تاريخ حكماء الاسلام) مقدّم في الزمن على كل من (القفطي) و (ابن أبي أصيبعة) بنحو مئة سنة : فان الأوّلين عاشا في أواسط القرن السابع اما البيهقي ففي أواسط القرن السادس : فيكون كتاباهما أجمع من كتابه . وصوابهما في الغالب أكثر من صوابه . والبيهقي ترجم للحكماء المسلمين : أطباء وغيرهم . ومعظمهم أعاجم من بلاد فارس . لأنه هو من (بيهق) وهي بلدة في نواحي نيسابور . و (القفطي) ترجم للحكماء أطباء وغيرهم مسلمين وغيرهم . اما (ابن أبي أصيبعة) فلم يترجم إلا للأطباء وطائفة من الحكماء الذين لهم نظر وعناية بصناعة الطب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبيهقي لم يلتزم في كتابه تبويب الاسماء وترتيبها بحسب حروف الهجاء ولاباعتبار الطبقات . بخلاف زميليه (القفطي) و (ابن ابي اصيبعة) فان الاول التزم حروف الهجاء . والثاني راعى طبقات الحكماء باعتبار أقطارهم وأزمانهم . فمن ثم كان كتاباهما أوفى وأوفر زمناً على المراجع والمطالع . ومن مواضع الملاحظة ان (القفطي) لم يترجم في كتابه (للبيهقي) مع أن البيهقي — على مايظهر من تضاعيف كتابه — قد اشتغل كثيراً بعلوم الحكمة والطبيعة والرياضيات . ومنها أيضاً ان ابن ابي اصيبعة ترجم للسجزي مؤلف (صوان الحكمة) لكنه لم يَعُدّ كتابه (صوان الحكمة) في جملة تآليفه الكثيرة التي سردها .

وإذا أعملنا المقارنة بين كتاب (القفطي) وكتاب (ابن ابي اصيبعة) وكتاب (البيهقي) ظهر لنا بينها بون بيّن ، واختلاف ليس بالهيّن : من ذلك الاختصار والايجاز في كتاب البيهقي . والإطالة والاسهاب في الكتابين الآخرين . ومن ذلك أيضاً وهو المهم في نظر المحصّلين العناية والضبط والتحرير : فان في تاريخ البيهقي مالا يتفق مع الحقيقة ولا ينطبق على الواقع احياناً : يظهر ذلك لمن تصفح ترجمة (حنين بن اسحق) و (يحيى النحوي) و (يعقوب بن اسحق الكندى) في الكتب الثلاثة : فإنه يجد البيهقي قصّر كثيراً بل اخطأ خطأ كبيراً في أمور كان يجب التروي فيها والتقصّي عنها . وإذا نقلنا للقارىء ماقاله (الثلاثة) في (الثلاثة) طال الشرح عليه ، وألقى مقالنا من بين يديه . وانما نحن نمثل له تمثيلاً : ذلك ان (البيهقي) يقول في ترجمة (يحيى النحوي) انه نصراني ديلمي نشأ في بلاد فارس وان عامل الامام علي رضي الله عنه أراد تخريب ديره فكتب (يحيى) الى علي يستعديه على عامله فأمر علي ابنه (محمد ابن الحنفية) فكتب اليه كتاباً بكفّ أذاه عنه قال البيهقي وقد رأيت نسخة كتاب الامام علي في يد الحكيم ابي الفتوح المستولي النصراني وتوقيع الكتاب هكذا (الله الملك وعليٌّ عبده) قال : وان خالد بن يزيد أخذ الطب من (يحيى النحوي) المذكور اه ملخصاً ولا يخفى ان (يحيى النحوي) كما حققه (القفطي) و (ابن ابي اصيبعة) وغيرهما هو اسقف الاسكندرية وصديق عمرو بن العاص وهو صاحب الحكاية معه في الخبر المكذوب اعنى حريق مكتبة الاسكندرية فلم يكن في الحقيقة ديلمياً ولا معاصراً لخالد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن يزيد بل إن معلم خالد كان ـ فيما زعموا ـ يسمى الراهب مريانوس . وقال البيهقي في (يعقوب بن اسحق الكندي) انه كان نصرانياً أو يهودياً فأسلم مع ان (القفطي) و (ابن ابي اصيبعة) قالا عنه وهو الصحيح انه العربي القح من سلالة (الاشعث بن قيس الكندي) رضي الله عنه وانه فيلسوف العرب الوحيد . ولم يكن في أمة الاسلام فيلسوف غيره . أقول وكأن الشعوبية أو الدقة الكارهون للاسلام نفسوا علينا هذا الفيلسوف الاسلامي العظيم فأرادوا أن يسلبونا إياه في جملة ماسلبوا فالامر لله العليّ الكبير .

وبالجملة فان ما كتبه (البيهقي) في تراجم كتابه يشبه ان يكون تعليقات أو كما نسميها اليوم (مفكّرات) حفظها لنفسه فجاءت غير محرّرة ولا مهذّبة . ثم مات قبل ان يتسنى له تمحيصها وتخليصها من الشوائب ، على ان هذا القول في كتاب البيهقي ليس على إطلاقه : فإنه في بعض من ترجم لهم من العلماء لا سيما علماء بلاده الاعاجم أجاد وأفاد باكثر مما فعل زميلاه : انظر مثلا ترجمة (عمر بن الخيام) في كتاب (القفطي) تره مختزلاً موجزاً قد لاتخرج منه بفائدة . أما (البيهقي) في تاريخه (تاريخ حكماء الاسلام) فانه جوّد في ترجمة الخيام وأحسن كل الاحسان وذكر له من الاخبار والاطوار مالم يذكره غيره . وربما نقلنا ماقاله عنه في أحد اعداد مجلة المجمع . ومما رواه عنه انه دخل عليه يوماً في خدمة والده وذلك سنة (٥٠٧) هـ وكان المؤلف حدثاً فسأله الخيام عن معنى قول الحماسي :

(ولايَرْعَوْن اكنافَ الهُوَيْنا إذا حلّوا ولا أرض الهدون

وسأله أيضاً عن (انواع الخطوط القوسية) قال فأجبته عن السؤالين بما أعجبه وارتضاه . فالتفت الخيام إلى والدي وقال (شنشنة أعرفها من أخزم) . ومما ذكره عن الخيام اجتماعه بالامام الغزالي وسؤال الغزالي له عن مسألة في علم الهيأة . ثم وصف كيف كان موته وانه قال في سجوده الاخير (اللهم تعلم أني عرفتك على مبلغ إمكاني . فاغفرلي ، فانّ معرفتي اياك وسيلتي اليك) .

ومن مزايا كتاب البيهقي أيضاً انه ترجم لطائفة من الحكماء لم يترجم لهم القفطي كاسحق بن سليمان وابي الفرج ابن الطيب . وترجم لطائفة أخرى لم يترجم لها ابن ابي اصيبعة كيحيى بن منصور ومحمد بن جابر . وهناك طائفة كبيرة ترجم لها هو وأهملها زميلاه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المذكوران : كابي الحسن البسطامي وابي زيد البلخي وعبد الواحد القايني وظهير الدين عبد الجليل والامير السيد الامام زين الدين الحسيني الجرجاني . وقد قال عن هذا الاخير انه أحيا فن الطب وسائر العلوم بتصانيفه الممتعة التي سارت بذكرها الركبان . ومنها كتابه في الرد على الفلاسفة ، وانه رآه سنة (٥٣١) في مدينة سرخس بعد ان بلغ من العمر أطوريه (أي أقصى طرفيه) واورد له رسالة أرسلها إلى بعض اخوانه في تقبيح الملذّات البدنية والنعي على اصحابها غفلتهم واستهتارهم . من ذلك قوله فيها (أما علمتَ أن اللذّات الدنيوية كلها في الحقيقة آلام ؟ أليست هي في أكل الطيب ، وشرب العذْب ، ولبس اللين ، وركوب المهملج (المذلّل المنقاد من البرازين) وقهر العدو والتمتّع بالنساء . وهذه كلها حاجات متعبة وخصوصاً للعقلاء ، وضرورات مزعجة للمتيقظين من العلماء : لأن الاكل والشرب إنما هما لدفع الجـــوع والعطش ، واللبس أيضاً لدفع ألم الحر والبرد ، والركوب لمنع تعب المشي ، وقهر العدو لطلب التشفي من ألم الغيظ ، والتمتع . . . . . .

فما أخسّ هذه اللذة عند العاقل المتيقظ وما أهونها عليه ! ! ! وما أقبحها عنده وما أفضحها لديه ! ! إلى أن قال : ولقد صحبت أخاً كان إذا صام صبر طويلا ، ثم إذا قُدّم اليه الطعام بكى ثم أكل وقال « اللهم أنت خلقتني . وأنت أحوجتني . وبالخطب اكرمتني . فهب لي ماوعدتني » وكان هذا الكلام شكاية من الصديق لألم الحاجـــة . ثم ختم الرسالة بهذا الدعاء وهو قوله :

(اللهم إني أسألك غير متحكّم عليك أن تكفيني مؤونة هذا الجسد الذي هو سبب كل مذلّة . وأصل كل حاجة . والجاذب إلى كل بليّة . والطالب لكل خطية . وأن تيسر الخلاص منه على أسهل وجه . وأفضل حال)

وبالجملة فان البيهقي في كتابه (تاريخ حكماء الاسلام) أتى على فوائـــد تاريخية في تراجم بعض الحكماء غابت عن زميليه (القفطي) و (ابن ابي اصيبعة) فلا بدع أن يكون في نشر هذا الكتاب من رمسه ، والاقبال على مطالعته ودرسه ، فائـــدة للمحصلين ، والمؤرخين المحققين . فلعل احداً من تجار الكتب وأرباب المطابع يروق له طبعه ونشره ، فتعم فائدته ويعبق نشره . « المغربي »

هذه مادة علمية تعاونية بين مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net